﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 113]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ

ولمَّا وعظَ ﷻ في هذه النَّازلةِ وذكرَ أعمالَ الخائنين وأوصافَهم وأحكامَهم؛ بيَّن نعمته على نبيِّه ﷺ في عصمته عمَّا أرادوه من مجادلتِه عن الخائن، وهو الحاكمُ بينَ الخصمين؛ إثباتًا لنبوَّتِه وتأييدًا له بالعصمة، بفضلٍ من اللهِ ورحمةٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضْلُ﴾: يدورُ معنى الفضلِ على الزِّيادةِ في الشَّيء، وهو ضدُّ النَّقْص، وأكثرُ ما يُستعملُ الفضلُ في الزِّيادة في الخير وفي ما هو محمودٌ، فإن كان في ما هو مذمومٌ فيُقالُ: الفُضولُ، والفَضْلةُ: البقيَّةُ من الشَّيْء، والإفضالُ: الإحسانُ، والفواضل: الأَيادي الجسيمة، وهذا من المجاز، والفضيلةُ: الدَّرَجةُ الرَّفيعَةُ في الفَضْل، وفضلُ اللهِ الزِّيادةُ في القدرِ والمنزلةِ، وكلُّ عطيَّة لا تلزم من يعطي؛ يُقالُ لها: فَضْلٌ، وفضلُ اللهِ على نبيِّه عطيَّتُه من الخيرِ في القدرِ والمنزلةِ، وما اختصَّ به ﷺ من العصمة والتَّوفيق، وهو المرادُ في الآية[2].

2) ﴿لَهَمَّت﴾: أصلُ معنى الهمِّ يدورُ على ذوبانِ الشَّيءِ، ومنه انهَمَّ الثَّلجُ، والشَّحْمُ، والبَرَدُ: ذاب، والهَمُّ: الحُزْنُ الَّذي يُذيبُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/398.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن/19، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).

الإنسانَ، وأهَمَّه: أَقْلقَه وحَزَنه، وهمَّه السَّقمُ والمرض: أذابَه وأذهبَ لحمَه، ويُقالُ: همَّ بالشَّيْءِ يَهمُّ همًّا؛ إذا أراده ونواه وعزم عَلَيْهِ، أَو حدَّث بِهِ نَفسَه[1]، ومعنى ﴿لَهَمَّت﴾ في الآية: لَجَعَلَتْهُ هَمَّهَا وَشُغْلَهَا حَتَّى تُنَفِّذَهُ[2].

3) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: جذرُه اللُّغويُّ (طوف)، وأصلُ معناه: دَوَرَانُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ بِهِ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وبِالبَيْتِ، يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا، والطَّوافُ المشيُ حولَ الشَّيءِ، ومنه: الطَّائِفُ لمن يدورُ حولَ البيوتِ، والطَّائفةُ القطعةُ من الشَّيء، وتطلقُ الطَّائفةُ على الْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ، وتَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ، كأَنَّه أَرادَ نَفْسًا طَائِفَةً[3]، والمرادُ بالطَّائفةِ في الآيةِ القومُ الَّذين نزلت فيهم الآياتُ السَّابقةُ، وهم قومُ طُعمةَ بنِ الأُبيرق[4].

4) ﴿يُضِلُّوكَ﴾: الضَّلالُ: هو ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقِّه، ولهذا وُسِمَ الضَّلالُ بالعُدول عنِ الطَّريق المستقيم، والمنهجِ القويم عمْدًا كان أو سَهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، والضَّلالُ ضدُّ الهُدَى، وضلَّ في الأَمرِ ضلالاً؛ إِذَا لمْ يَهتدِ لَهُ، وضلَّ في الأَرْضِ ضلالًا؛ إذا لمْ يهتدِ للسَّبيلِ[5]، ويُضلُّوكَ في الآية بمعنى: يُخَطِّئُوكَ فِي الْحُكْمِ الحقِّ، وَيُلْبِسُوا عَلَيْكَ الْأَمْرَ[6].

5) ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: الضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشَّيءِ، تقول: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، أي: نقصَ ماله، والضَّرُّ والضُّرُّ لُغَتَانِ: ضِدُّ النَّفْعِ، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى التَّفريقِ: فقيلَ: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَفَقْرٍ أَو شِدَّةٍ فِي بَدَنٍ فَهُوَ ضُرٌّ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّ، ومن الضُّرِّ سُوءُ الحالِ لنقصٍ دخل فيه، إمَّا في النَّفس؛ لقلَّة العلم والفضلِ والعفَّة، وإمَّا في البدنِ؛ لعدم جارحةٍ ونقصٍ فيه، وإمَّا في الحالةِ الظَّاهرةِ من قلَّة مالٍ وجاهٍ[7]، ومعنى إضرارِه ﷺ أن يَبتعدَ عنِ الحقِّ، وهو لم يحصُلْ، فإنَّ اللهَ ﷻ عصمَك، وما خطَرَ ببالِك كان اعتمادًا منك على ظاهرِ الأمرِ، لا مَيلًا في الحُكمِ[8].

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (همم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 1/477.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ضلل).
(6) البغوي: معالم التنزيل: 1/700.
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96.

6) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القرآنُ الكريمُ[1].

7) ﴿عَظِيمًا﴾: يدور معنى عِظَم الشَّيءِ على الكِبَرِ والقوَّةِ، وعَظُمَ الشَّيءُ أصلُه: كبُرَ عظمُه، ثمَّ استعيرَ لكلِّ كبيرٍ، فأُجريَ مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى[2]، ومعظم الشَّيء: أكثره، وعَظُم عِظَمًا كبُرَ، فهو عظيمٌ[3]، و﴿عَظِيمًا﴾ في الآية بمعنى: (كبيرًا كثيرًا).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لولا أنَّ اللهَ خصَّك بالفضلِ، وهو النُّبوَّةُ والتَّأييدُ بالعصمةِ، ورحمتُه لك ببيانِ حقائقِ الأمورِ وإعلامِك بها؛ لعزمتْ جماعةٌ من الَّذينَ يخونونَ أنفسَهم أنْ يُزلُّوك عن طريقِ الحقِّ وعن الحكمِ العدلِ، وما يُزلُّونَ بذلك إلَّا أنفسَهم، وما يقدرونَ على إيذائِك وإيقاعِ الضَّررِ بكَ، لعصمةِ اللهِ لكَ، وأنزلَ اللهُ عليك القرآنَ والسُّنَّةَ المبيِّنةَ له، وعلَّمَكَ ما لم تكنْ تعلمُه مِن قبلُ من أمورِ الدِّينِ والأحكامِ وغيرِهما، وكان ما خصَّكَ اللهُ به من فضلٍ ونعمةٍ أمرًا عظيمًا[4].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

تحقُّقُ فضلِ اللهِ ورحمتِه على رسولِه ﷺ

دلَّ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾ على القطعِ بامتناعِ وقوعِ ما همُّوا له من إزالة رسولِ اللهِ ﷺ من الحكم بالحقِّ؛ لتحقُّقِ ما خصَّ اللهُ رسولَه ﷺ من فضلِه ورحمتِه بالنُّبوَّةِ والعصمةِ، والقصدُ بيانُ تحقُّقِ فضلِ اللهِ ورحمتِه على رسولِه وإثبات القطعِ بامتناعِ إزالةِ رسولِه عن الحقِّ، لاستمرارِ فضلِ اللهِ عليه ورحمتِه من غيرِ انقطاعٍ.

دلالةُ الإضافةِ على التَّخصيص:

تعظيمُ فضلِ اللهِ ورحمتِهِ التي خصَّها اللهُ لرسولِه

في قوله: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ إضافةُ العامِّ: وهو ﴿فَضۡلُ﴾، إلى الخاصِّ:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 1/700.
(2) الراغب، المفردات: (عظم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (عظم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/216.

وهو ﴿ٱللَّهِ﴾، وأفادت إضافةُ التَّخصيصِ هنا: تعظيمَ الفضلِ والرَّحمةِ التي خصَّها اللهُ لرسولِه وكونها أمرًا إلهيًّا، ودلَّ عليه التَّقييدُ بقولِه: ﴿عَلَيْكَ﴾، ولهذا عبَّر المفسِّرون عن الفضل بالنُّبوَّةِ أو العصمةِ وما هو في معناهما[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِه: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ بالمصدرِ ﴿فَضْلُ﴾ دونَ الفعلِ؛ للدَّلالةِ على سعتِه ولما يقتضيه من آثارِه المتكثِّرة، وكونِه فضلًا ثابتًا.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾:

استيعابُ فضلِ اللهِ المعظَّمِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيْكَ﴾ لما يدلُّ حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعاب والتَّمكُّن، وتعظيمِ الفضلِ لرفعتِه وما يُشعر به من نزولِه من علوٍّ، والمعنى: استيعابُ فضلِ اللهِ المعظَّمِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه، وكُرِّرَ ﴿عَلَيْكَ﴾ في الآية مرَّتين كما سيأتي.

نكتةُ تقديمِ الفضلِ على الرَّحمة:

لولا رحمةُ اللهِ؛ لَمَا تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه

لأنَّ فضلَ اللهِ بسببِ رحمتِه، فلولا رحمةُ اللهِ لما تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه.

حذفُ القيدِ بينَ الإيجازِ والتَّعميمِ في قولِه: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾:

رحمةُ اللهِ لرسولِه فيها معنى الخَصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين للمقامِ

يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على الإيجازِ بحذفِ القيدِ، أي: الجارِّ والمجرورِ (عليكَ) أو (بكَ) بعد قوله: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾، والتَّقدير: ورحمتُه عليكَ أو ورحمتُه بكَ، فحُذِفَ لِقرينةِ السِّياقِ بدلالةِ المذكور في قولِه ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾، فتكونُ الرَّحمةُ في الآيةِ ممَّا خصَّ اللهُ به رسولَه من رحمةٍ ليست كسائرِ النَّاسِ، ففيها معنى الخَصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين لمقامِ نبيِّه وحبيبِه ﷺ كما يحتملُ أنْ يكونَ على معنى تعميمِ رحمتِه، فيكونُ الفضلُ ممَّا اختصَّ به رسولُ اللهِ ﷺ ورحمتُه به ممَّا عمَّتْهُ، وشملتْهُ كما تعمُّ جميعَ المؤمنينَ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/16.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾:

سعيُ المضلِّين لإزالة المؤمنين عن الحكمِ الحقِّ مع علمِهم بحقيقته

عبَّر بقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ للإشعار بأنَّهم أرادوا أنْ يُضلُّوك عن القضاء بالحقِّ، ويزيلوكَ عنه مع علمهم بكُنهِ الأمرِ وحقيقتِه، فمعنى ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: أن يخطِّئوك في الحُكْم، فيكون مجيءُ لفظِ الضَّلالِ على المجاز، لتهويلِ فعلِهم ولِلمبالغة في تعظيمِ ما همُّوا به[1]، فالإضلالُ هنا ليس من باب الحقيقةِ، بل من المجازِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَهَمَّت﴾:

نفي تأثيرِ الهمِّ إيذانٌ بنفيِه بالكلِّيَّةِ

قد يُقالُ: إنَّ الهمَّ قد وقعَ منهم، فكيف ينفي همَّهم؟ لأنَّ التَّعبير بأسلوب الشَّرط بـ(لولا) يدلُّ على القطع بامتناع وقوعِ الجزاءِ لوقوع الشَّرط، فيكون نفيُ الهمِّ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونكتتُه أنَّه إنَّما نفى همَّهم مع أنَّ المنفيَّ إنَّما هو تأثيرُه فقط إيذانًا بانتفاء تأثيرِه بالكلِّيَّة[2].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ:

عصمةُ اللهِ لرسولِه تبطلُ كيدَ الكائدين وضلالَهم

أُسندَ الهمُّ إلى الطَّائفة، واللَّفظ على العموم؛ لِيكون على خلاف مقتضى الظَّاهر ليشملَ أهلَ النَّازلة وغيرَهم، أي: ولولا عِصمةُ اللهِ لك؛ لكانَ في النَّاس من يشتغلُ بإضلالِك، ويجعلُه همَّ نفسِه، أي: كما فعلَ هؤلاء، لكنَّ العصمةَ تُبطلُ كيدَ الجميعِ، فيَبقَى الضَّلالُ في حيِّزِهم[3].

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ و﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾:

مناسباتُ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً وتشوُّفًا إلى الكلامِ

ورد الجناس النَّاقص في الآيةِ لتحسينِ الكلام وتزيينه؛ ليميل المخاطَبُ إلى الإصغاءِ إلى الكلام، فإنَّ مناسبةَ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً إليها؛ ولأنَّ اللَّفظَ المشتركَ إذا حُمِلَ على معنًى، ثمَّ جاءَ

(1) الواحدي، الوسيط: 2/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.

والمرادُ به معنىً آخرُ كان للنَّفسِ تشوُّفٌ إليهِ، وللتَّنبيهِ إلى أنَّهم قد أصابهم عينُ ما همُّوا به؛ نكايةً بهم وتقريعًا لهم وتوبيخًا[1].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

الخائنونَ ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ

طريق النَّفي والاستثناء يُسلَكُ معَ مَنْ يعلمُ المتكلِّم أنَّ المخاطبَ مخطئٌ فيه، وهو مصرٌّ على خطئه[2]، وبيانُه في الآية أنَّه لمَّا كانتْ هذهِ الطَّائفةُ تعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه سلَّم على الحقِّ، وتعلمُ أنَّها بإلباسها على نبيِّ اللهِ ﷺ تعدلُ عن الطَّريقِ المستقيمِ؛ أبرزَ الكلامَ في معرضِ مَنْ يعتقدُ أنَّهُ على الصَّوابِ؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ توبيخًا لهم وتقريعًا، فكأنَّه قيل: ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ.

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) دونَ غيرِها من أدوات النَّفي:

تأكيدُ ضلالِ الخائنين واستمرارِه

لمَّا كانت (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نزِّلَ هذهِ المنزلةَ، وكان النَّفي بها آكدَ من غيرِها، ودالًّا على الاستمرارِ لقرينةِ السِّياق[3]؛ عُبِّرَ بها في أسلوبِ القصرِ لتأكيد ضلالِهم واستمرارِه.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُضِلُّونَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلِ بصيغة المضارعِ استمرارَهم في الضَّلال، لتجدُّدِه حالًا فحالًا، والمعنى: ازدادوا ضلالًا على ضلالِهم بما همُّوا به.

دفعُ توهُّمِ قدرةِ الخائنينَ على الإلباسِ على رسولِ اللهِ ﷺ ونفيُ أيِّ ضررٍ عنه

دلالةُ الاعتراض في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾:

وردت الجملتان المعطوفَتان على سبيل الإطنابِ بالاعتراض[4]، ونكتةُ مجيئِهِ في الجملة الأولى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ هي لدفع توهُّمِ قدرتِهم على الإلباسِ على رسولِ اللهِ ﷺ ولتأكيدِ إثباتِ

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم/294.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/192، 194.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.

ضلالِهم واستمرارِهم عليه، وسببُ مجيئِه في الجملةِ الثَّانية، لِلتَّنبيه على نفي أيِّ ضررٍ يصيبُ رسولَه ﷺ منهم في الماضي أو في المستقبل، وفيه تأكيدٌ لإثبات نبُوَّته ﷺ وعصمته[1].

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) في قولِه: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

(مـا) آكـدُ من غيرِها في النَّفي؛ ولـهـذا لا تـزادُ (مِـن) إلَّا معها من أداواتِ النَّفي

تقدَّم أنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، فعُبِّرَ بها هنا للرَّدِّ على ما كانوا يعتقدونَه من قدرتِهم على الإضرارِ بنبيِّ الله ﷺ كما أنَّها آكدُ من غيرِها في النَّفي، وتفيدُ هنا استمرار نفي إضرارِهم برسولِ الله ﷺ لدلالتها على النَّفي المطلق بقرينة السِّياق وتأكيدِ النَّفي بـ(مِن).

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

إعـجـازٌ قـرآنيٌّ بعصمةِ رسولِ الـلـهِ ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبلِ

لَمَّا كانَ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ دالًّا عَلَى الْعُمُومِ نَصًّا؛ لمجيئه في سياق النَّفي بـ(ما)، وكانت (ما) دالَّةً على استمرارِ النَّفي كما تقدَّم كان المعنى: لَا يَضُرُّونَكَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، لا في الحالِ وفي المستقبل، فيكونُ وعدًا بالعصمة في المستقبل، وفيه إعجازٌ قرآنيٌّ بعصمة رسولِ اللهِ ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبل، وقد كان[2].

مناسبةُ مجيءِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾:

لا يليقُ بحكمةِ الله ألَّا يعصمَ رسـولَـه عـن الـوقـوعِ في الضَّلالاتِ أو أنْ يصيبَه ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغ

لَمَّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾ بيانًا لعصمة رسولِه ﷺ في المستقبل؛ أفادَ ما بعدَه تأكيدَ هذه العصمةِ وتقريرَها، وبيانُه أنْ يُقالَ: لَمَّا أنزلَ عليك الكتابَ والحكمةَ، وأمركَ بتبليغِ الشَّريعةِ إلى الخلقِ؛ فكيف يليقُ بحكمته ألَّا يعصمكَ عن الوقوعِ في الشُّبُهاتِ والضَّلالاتِ، أو أنْ يصيبَك ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغِ والإنذارِ، وأيضًا

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/617.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/61.

في هذهِ الجملةِ زيادةُ تقرير معنى قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وبيانٌ لأعظمِ أنواعِ فضلِه ورحمتِه[1].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

تربيةُ المهابةِ من اللهِ في نفوسِ السَّامعين

فذُكرَ الاسمُ الجليلُ في بداية الآية، وكان الظَّاهرُ أن يُعبَّرَ بالضَّمير لقربِ المذكورِ، فجاء الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ بوضع الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ موضعَ المُضمَرِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ السَّامعين، ولتعظيمِ ما أنزلَ اللهُ، وما علَّمَ رسولَه ممَّا لم يكن يعلمُ، ولأنَّه في مقامِ الامتنانِ وتأكيدِ العصمةِ والحفظِ، فاقتضى نسبةُ الفعلِ إلى الاسمِ الجليلِ الدَّالِّ على الألوهيَّة.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ (على) في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾:

تمكُّنُ القرآنِ من النَّبيِّ ﷺ والتَّنبيه على علوِّ شأنِه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيْكَ﴾ لما يدلُّ عليه حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعابِ والتَّمكُّنِ، فلم يقل: (وأنزل إليكَ الكتابَ)؛ لإظهار تمكُّنِ المنزَّلِ من النَّبيِّ ﷺ واستيعابِه للذَّاتِ الشَّريفةِ، وللإشارةِ إلى علوِّ شأنِ الكتابِ ورفعتِه وعلوِّ شأنِ المنزَّلِ عليه.

سببُ إيثارِ ذكرِ الكتابِ دونَ القرآنِ:

فعبَّرَ بالكتابِ الَّذي هو القرآنُ لمناسبةِ لفظِ الكتابِ للحكمةِ والعلمِ.

دلالة (ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه

تحتملُ (الـ) أن تكونَ لاستغراقِ أوصافِ الكمالِ، بمعنى: أنزلَ اللهُ عليك الكتابَ الكاملَ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه، وكأنَّه هو المنفردُ باستحقاقِ وصفِ الكتابِ، كما تحتملُ (الـ) أنْ تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى: الكتابِ المعهودِ الَّذي يعلمُه المخاطبونَ والنَّاسُ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/216/م ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.

دلالةُ (ال) في قوله: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

كمالُ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ

إذا كان المرادُ من الحكمة سُنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ فإمَّا أنْ تكونَ (الـ) لاستغراقِ الأوصافِ بمعنى: كمالِ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ، أي: في ما كانَ في غيرِ الكتابِ أي القرآن، وإمّا أنْ تكونَ للعهد العلميِّ بمعنى السُّنَّةِ المعهودةِ عندَ المخاطَبين، وإذا كانَ المرادُ من الحكمةِ معرفةَ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، فتكونُ (الـ) استغراقيَّةً لأفرادِ المعارفِ والأسرارِ التي أطلعَها اللهُ تعالى لرسوله الكريم ﷺ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾:

لولا إعلامُ اللهِ رسولَهُ خفيَّاتِ الأمورِ وأمورَ الدِّينِ وأحكامَ الشَّرع لَمَا علمَها

تفيدُ (ما) هنا: العمومَ؛ ليشملَ أخبارَ القرونِ السَّابقةِ، وعلمَ أَسۡرَارِ الۡكِتَابِ وَالۡحِكۡمَةِ وغيرِها من الأشياءِ والأحوالِ ممَّا خصَّ اللهُ به رسولَه ﷺ من العلم، والمقامُ مقامُ تخصيصٍ، والمعنى: علَّمكَ بالوحي من خفيَّاتِ الأمورِ الَّتي من جملتِها وجوهُ إبطالِ كيدِ المنافقين، أو من أمور الدِّين وأحكامِ الشَّرع، ولولا إعلامُهُ إيَّاكَ إيَّاها لَما تعلَّمتَها[1]

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿وَعَلَّمَكَ﴾:

تكثيرُ المعلوماتِ الَّتي علَّمها اللهُ رسولَهُ حبًّا له ﷺ وتكريمًا

دلَّ مجيءُ الفعلِ على صيغة (فعَّل) على تكثير ما علَّمَه اللهُ لرسولِه ﷺ، كما تُشعرُ صيغةُ الخطابِ بالتَّودُّدِ والتَّحبُّبِ والتَّقريب.

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾:

وردَ في الآية الجناسُ النَّاقصُ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾، لتزيين الكلامِ وتحسينِه، ليتشوَّفَ المخاطبُ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ والميلِ إلى سماعِه والانتباهِ إليه، فإنَّ اللَّفظَ المشتركَ؛ إذا حملَ على معنى، ثم جاءَ والمرادُ به معنًى آخر كانَ للنَّفسِ تشوُّفٌ إليه[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/62، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.
(2) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

بديعُ طباق السَّلب:

في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ طباق السَّلب، بين ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾، ليزيد المعنى حُسنًا بزيادة تنبيهٍ بما تفضَّل اللهُ به على رسولِه الكريم ﷺ[1].

مناسبةُ التَّرتيبِ في الامتنان:

الـقـرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ

ذكرَ اللهُ تعالى امتنانَه على حبيبِه محمَّدٍ ﷺ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾، ونكتةُ مجيئِه بهذا النَّسقِ هو أنَّ اللهَ تعالى رتَّبَ فضلَه على رسولِه ﷺ بحسبِ الأصلِ وما يترتَّبُ عليه، فبدأَ بالكتابِ، وهو القرآنُ، ثمَّ ذكرَ الحكمةَ المترتِّبةَ على القرآنِ، وهي السُّنَّةُ أو معرفةُ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، ثمَّ ذكرَ العلم، وهو مرتَّبٌ على الحكمة؛ لبيانِ آياتِ الامتنانِ بذكرِ الأعلى مكانةً ومنزلةً وفضلًا، ثمَّ ما يترتَّبُ عليه، فالقرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ.

حسنُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا﴾:

تضمَّنت جملة التَّذييلِ فوائدَ لغويَّةً وبلاغيَّةً، هي:

1. أفاد التعبير بـ(كان) استمرارَ فضلِ اللهِ على رسولِه ﷺ وعدمَ انقطاعِه بعد موتِه؛ إذ يذكرُه المؤمنون، ويصلُّون عليه ﷺ كلَّ وقتٍ وحينٍ، وينتفعون من سُنَّتِه، فلهُ الثَّوابُ المستمرُّ الدَّائمُ، كما أفادَ التَّعبيرُ بـ(كان) ظهورَ آثارِ فضلِ اللهِ على رسولِه بينَ النَّاس واستمرارِه.

2. لمَّا كان أصلُ الخطابِ أن يكونَ لمعيَّنٍ، ويُتركَ لغيرِ معيَّنٍ للحملِ على العموم؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ لنكتةِ شمولِ الخطابِ كلَّ مؤمنٍ، للإشعارِ بأنَّ كلَّ مؤمنٍ قد خصَّه اللهُ بفضلٍ عظيمٍ؛ ليكونَ موجبًا لزيادةِ محبَّةِ اللهِ وشكرِه.

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/225.

3. أفاد التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ تأكيدَ استيعابِ فضلِ اللهِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنِه منه.

4. لمَّا تصدَّر الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بما يدلُّ على إثباتِ فضلِ اللهِ ورحمتِه على نبيِّه ﷺ كانت جملة التَّذييلِ بمنزلة ردِّ العجزِ على الصَّدر[1].

5. لمَّا جاءت جملةُ التَّذييل بعدَ بيانِ فضلِ العلم، وأنَّه من فضلِ اللهِ؛ كانَ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَعْطَى الْخَلْقَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَنَصِيبُ الشَّخْصِ مِنْ عُلُومِ الْخَلَائِقِ يَكُونُ قَلِيلًا، ثُمَّ إِنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ الْقَلِيلَ: عَظِيمًا، وذلكَ يدلُّ على غايةِ شرفِ العلم[2].

6. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّة؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها، ولعلَّ هذه الجملةَ من أعظم ما يُتَمثَّلُ به في بيان امتنانِ المنَّانِ وعظيمِ فضلِه، ولاسيَّما أنَّها مُشعِرةٌ بقربِ التَّخاطبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/217.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»